

## الحلقة (٢١)

تكلمنا في اللقاء السابق عن الربا تلك الجريمة الشنيعة البغيضة التي حاربها الإسلام وأعلن حرباً شعواء لا هوادة فيها عليها.

لماذا؟! لأن الربا مهلكة للأفراد والمجتمعات والدول، سنعرف بعد أن عرفنا تعريف الربا من حيث التعريف اللغوي، الربا هذه الجريمة الشنيعة البغيضة كما قال الله عز وجل عن يوم القيامة "ظاهره الرحمة ومن قبله العذاب" [هكذا قالها الشيخ لكن الآية الصحيحة هي: {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} ]

الربا هذه الآفة التي تدمر تدميراً الفرد والمجتمع والدول، حقيقة الربا من الناحية التاريخية كان موجوداً قبل نزول القرآن، وقلنا لكم سلفاً إن الاقتصاد الذي هو بمفهومه اليسير: معاوضة بين شخص يملك شيئاً والآخر لا يملكه، وبين دولة تملك شيئاً والآخر لا تملكه، فإذا هذا هو الذي يُظن عقلاً من أنك تأخذ شيئاً وتعطيني مثيله لا زيادة ولا ظلم ولا غبناً ولا جهالة. أما إذا انخرفت المعاملة عن الجادة، ويكون الانحراف إما بالغصب أو بالسرقة أو بالتعدي أو الربا، هنا يأتي دور العالمون، والعلماء يبينون حقيقة هذا المال.

نحن نعلم أن الرسول ﷺ في الحديث الذي في المسند وغيره: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)، فالمال جعله الله عز وجل للإنسان ليس غاية بل وسيلة، فبأبسط صور هذا الأمر أن المال تستطيع به أن تنفع نفسك، تنفع أهلك، تنفع عشيرتك، تنفع بلدك، تنفع الإنسانية جمعاء، قالوا يا رسول الله ألنا في البهائم أجر؟ قال: (في كل كبد رطبة أجر).

إذاً المال الأصل أنه وسيلة لأن يسعد الإنسان نفسه وقومه وأمتة والإنسانية جمعاء، لكن المال هو الذي من المفترض أن يكون هكذا يستطيع هو مادة مَال، ما سمي المَال إلا لأنه يميل أو يتحول، فإذا هذا المال يجعل الإنسان يشقى، والدول تشقى أيضاً، لأن المال إذا تُصور أنه هو مصدر السعادة لا أن السعادة تقود المال؛ عندها يبدأ الإنسان منطلقاً ومحققاً حديث الرسول ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ أو ولن يملأ فاه إلا التراب)، فإذا أراد الإنسان أن يكون سعيداً فمرحّباً بالمال الذي يأتي تحت السعادة لا فوقها، أما إن تصورنا أن المال هو مصدر السعادة فعلينا أن نخرج زرافات ووحداناً وكما قال الشافعي "ليأكل بعضنا بعضاً عياناً" والكل يريد أن يكون صاحب مال ولا حد للمال، اثنان لا يشبعان (طالب مال، وطالب علم) فإذا لا حد للمال، يسعى هذا الإنسان ظاناً أن المال منه السعادة، فإذا ما وصل - كما يقال - وصل إلى الألوف فلا يقتنع بها، الملايين لا يقتنع

بها، وإذا به يحاول أن يصل إلى المليارات، وإذا ما وصل إلى المليارات بحث عن البلائين، وما بعد هذا الرقم أيضاً إذا كان هناك رقماً يسمى فهذا يبحث عنه.

لكن اعلم أن المال ليس فيه كل شيء، اعلم أن المال دعاك الله عز وجل إلى أن تبحث عنه لكن وفق ما يأمرك به هو سبحانه وتعالى، ووفق ما يأمرك به الرسول ﷺ.

إننا إذا ألغينا تلك الأخلاقيات التي هي تقوى وبر وإيمان، ودخلنا شاهرين سيوفنا للحياة، كل يريد المال، كل يريد الحصول على المال، كل يريد يصير مليارديرا كل كل حينها يأكل بعضنا بعضاً عياناً. إن الرأسمالية الحالية تلغي تلك الأخلاقيات، والإسلام يؤكد على تلك الأخلاقيات، الرأسمالية تدعو إلى أن الإنسان يكون آلة صماء للحصول على المال، الإسلام يريد من المسلم ومن الإنسان أن يكون إنساناً ذا خلق للحصول على المال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

إذاً المال لا يُتصور أن فيه السعادة كلها، إنما هو يجعل للسعادة طعماً، فإذا انخرفت العلاقة الاقتصادية بالربا، جاء الإسلام مصلحاً هذه العلاقة ومبيناً خطأ وخطر الربا على الفرد وعلى المجتمع وعلى الدول، فالفرد يذهب مقترضاً من البنك قرضاً، هذا القرض ينمو، ينمو، فقد لا يستطيع هذا الضعيف الوفاء بالقرض، وبالتالي الفائدة تنمو، وقد تبلغ المئتين والألوف، إلى أن يصبح هذا الفرد مريضاً، قد يصاب بمرض وقد إلى أن يصاب بالسكتة، فيأتي البنك بطريقة ليستولى على منزل هذا المقترض وتصوروا كيف أن باقي الأسرة يتشتتون.

المهم إذاً إن كان القرض للفرد والصورة رأيتموها، للمجتمع، نعم المجتمع أحياناً قد يقترض أو قد يتعامل بالربا، نحن لن نتكلم عن الوعيد، لن نأتي للوعيد الآن، نتكلم عن فلسفة الربا، إن المجتمعات عندما تتعامل بالربا فالمحصلة يصبح هذا المال للأقوى ومن يملك مالا أكثر، في النهاية يصبح المجتمع كله ضعيفاً لم؟ لأن أناساً يملكون المال كله، والدول تقترض من بنوك دولية، وهذه البنوك تسعى للنيل من تلك الدولة التي اقترضت هذا القرض وتضغط عليها، وتحصل أمور ما لا تحمد عقيبها.

### فإذاً الربا في الاصطلاح الشرعي شيئان:

١- تحريم النساء. ٢- والتفاضل.

تعلمون أن الرسول ﷺ في عرفات بحجة الوداع قال وهو يذكر ﷺ ويضع لهذه الأمة الإسلامية دستوراً يجب أن توافي عليه رسول الله ﷺ في الآخرة، فمما قاله ﷺ: (ألا إن كل رباً في الجاهلية موضوع، ألا وإن أول رباً أضعه ربا عبي العباس) أو في بعض الألفاظ: (ربانا) ﷺ، فإذا الربا كان موجوداً والعرب تقول تقضي أم ثري؟

وما جاء في القرآن هو ربا النسيئة، أما الفضل فمن السنة، ونحن قلنا إن السنة والقرآن شيء واحد، إذ الرسول ﷺ يُبلغ عن الله عز وجل، بل إن القرآن وَحَّدَ الضمير بقول الله عز وجل: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَحَّدَ الضمير لأن الله عز وجل ونبيه ﷺ كالشيء الواحد لأنه مبلغ عن الله عز وجل فإذا ربا الفضل بينته السنة.

وها هنا تنبيه يجب أن يعلمه المتعاملون والعاملون في المال: إن طرق التعامل تتجدد، وإن نصوص الشريعة محصورة، نعم القياس معمول به، والعصر كل عصر هناك معاملات تتجدد، فإذاً على الفقيه الإسلامي الاقتصادي أن يكون على دراية بكل ما هو جديد.

إذاً الاصطلاح الشرعي الربا شيئان: تحريم النساء والتفاضل في النقود وفي المطعومات، وغالب ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم أتقضي أم تُرني؟ يعني عبارة موجزة تدفع أم تزيد، ما هو موجود الآن وبعد الآن، تدفع أو الفائدة ترتفع، فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصبر الطالب عليه، وهذا كله محرم باتفاق الأمة.

﴿قول الله عز وجل: ﴿يَأْكُلُونَ﴾﴾: معناه يأخذون، وعبر عن الأخذ بالأكل لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، لأنه دال على الجشع.

﴿قوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾﴾: يتخبطه: يتفعّله، لاحظوا الإدغام هنا له دلالة، يتفعّله من خبط يخبط، كما تقول تملكه وتعبدّه، وهذا طبعاً يتخبطه، والذي عليه أهل السنة ويتفرع عن هذه المسألة: أن الجن ومردتهم قد يؤذون الإنسان، والمعتزلة وبعض العلماء أنكروا هذا.

﴿قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾﴾: الجنون، يقال: مُسَّ الرجل فهو ممسوسٌ مألوسٌ إذا جن، يتخبطه الشيطان من المس، إذاً ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ بمعنى: أن هذا المرابي وقت حلول الأجل في الآخرة أو عند الممات يجد أن الشيطان يتخبطه.

﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾﴾: أي إنما الزيادة عند حلول الأجل آخر كمثل أصل الثمن في أول العقد، وذلك أن العرب كانت لا تعرف رباً إلا ذلك.

﴿البيع: في اللغة مصدر باع كذا بكذا، أي دفع عوضاً وأخذ معوضاً ومبيعاً، وهو المثلون، وهو الذي يبذل في مقابله الثمن، فأركان البيع أربعة:

١-البائع الذي يبيع. ٢-المبتاع الذي يشتري.

٣-الثمن المدفوع. ٤-المثلون.

﴿قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾﴾ أل هنا للعهد، يعني الربا المعهود وما كانت العرب تفعله، ثم تتناول ما حرمه رسول الله ﷺ ونهى عنه من البيوع التي يدخلها الربا، وفيما معناه من البيوع المنهي عنها.

﴿ قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ ﴾ أي فمن بلغه وعظ من الله عز وجل وزجر للنهي عن الربا، وذَكَرَ الفعل (فمن جاءه) ولم يقل (فمن جاءته) ذَكَرَ الفعل لأن تأنيثها غير حقيقي، يعني كاليد والروح وما إلى ذلك.

﴿ قوله تعالى: ﴿ فَأَنْتَهِى ﴾ ﴾ فتبع النهي وامتنع، ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ فلا يؤاخذ بما مضى منه، لأنه أخذ قبل نزول التحريم.

وأكثر البيوع التي يدخلها الربا محصورة في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يدأ بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء) هذا الحديث في الصحيح إذ أخرجه مسلم رحمه الله وغيره.

وأجمع العلماء على القول بمقتضى هذه السنة، وعليها جماعة فقهاء المسلمين إلا في البر والشعير، فإن مالاً جعلها صنفاً واحداً، فلا يجوز منهما اثنان بواحد.

◀ علة تحريم الربا: يعني في الأصناف الستة المذكورة مسائل هذا الباب كثيرة وفروعه منتشرة.

❶ فقال أبو حنيفة رحمه الله: علة ذلك كونه مكيلاً أو موزوناً جنساً، فكل ما يدخله الكيل أو الوزن عنده من جنس واحد.

❷ وقال الشافعي رحمه الله: العلة كونه مطعوماً جنساً.

❸ وقال مالك رحمه الله: كونه مقتاتاً مدخراً للعيش غالباً جنساً.

فإذا علة تحريم الربا ما سمعناه من الأئمة الفقهاء رحمهم الله تعالى، بيد أننا نقول إن غير هذه الستة يقاس عليها أيضاً، ونحن قلنا أن النصوص الشرعية والقرآن كعاداته لا يعنى بالجزئيات، فالتصوص الشرعية محصورة، فإذا كان الأمر كذلك فإن غير المذكور يقاس عليه.

وحقيقة باب المعاملات الشرعية في الفقه الإسلامي باب أراه واسعاً، فيستطيع العالم الاقتصادي الفقيه الضليع يستطيع أن يأخذ هذه الأدلة التي أمامه ليقيس عليها غيرها من المعاملات المستجدة والوافدة والمعاصرة.

فلو قصرنا الحكم على ظاهر الدليل لما استطعنا أن نساير مشكلات الحياة المعاصرة، ولا سيما المالية، ونحن قلنا لكم أن هناك فرقاً ذكره قديماً ولا يزال موجدًا، أن الفقه الإسلامي ميزته يساير العصر بعكس القانون، فإن القانون قد يقننه أناس لظروف معينه، لعصر معين، والعقل البشري محصور، فطالما الأمر كذلك فيجب على الفقهاء الماليين المعاصرين المسلمين إيلاء هذا الأمر إيلاء وأهمية كبيرين، حتى يتجنب المسلم إن كان عالماً أو غير عالم يتجنب المعاملات المحرمة أو المعاملات المشبوهة حتى لا يقع تحت الوعيد الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾.

